

الفصل الرابع الكتب السماوية

تمهيد: إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية، وأنها من عند الله ﷻ، إلا أن هناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل الله به من سلطان، وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم، وقد اتضح ذلك عندما تكلمنا عن منهج الوسطية في توحيد الله وأسمائه وصفاته، حيث رأينا ما وقع فيه اليهود من التحريف، وما وقعت فيه النصارى كذلك، وقد وضح الله ﷻ ما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف والتبديل.

المبحث الأول تحريف اليهود وتزويرهم

أما اليهود فقد تفننوا في التزوير، وأضافوا في كتابهم المقدس وحذفوا منه واتبعوا كافة الأساليب الشيطانية وقد بين الله في كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة:

أولاً: إلباس الحق بالباطل

كان بنو إسرائيل يخلطون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز الحق من الباطل، وقد سجل القرآن الكريم هذا الجرم عليهم، قال سبحانه: ﴿يَبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَمِئْتُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِهْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْفُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (البقرة: ٤٠-٤٢) وقال سبحانه: ﴿يَتَأَهَّلِ الْكُتُبِ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١).

ومن أبلغ الصور وأقبحها في إلباس الحق ادعاء الكهنة والأخبار - في التوراة التي بأيديهم - أن هارون عليه السلام هو الذي جمع الذهب من بني إسرائيل واشترك معهم في صناعة العجل الذهبي، ووافقهم على عبادته من دون الله، وفي الوقت نفسه يبرئون السامري، فهارون الذي تحمل المشاق عليه الصلاة والسلام في سبيل إقناع فرعون بالتوحيد جعلوه داعية الشرك والكفر، ولكن القرآن الكريم كان لهذه الدعوى بالمرصاد، فكذبهم، وبين حقيقة الأمر^(١).

قال تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلِنَكُنَّا حُرًّا مِّنْ رَبِّنَا فَقَدْ فَعَلْنَا فَعَلًا كَرِيمًا ۗ فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ۖ فَمَا نَعْلَمُ لَهُ مِن سُلْطَانٍ خَلْقًا ۗ قَالُوا بَلْ يَدْعُونَ إِلَىٰ بَيْتِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَإِلَىٰ جُحُودِهِمْ ۗ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفِينَ حَتَّىٰ يُرْجَعَ إِلَيْنَا مَوْسَىٰ ۖ﴾ (طه: ٨٧-٩١).

فهذا هو الصدق حقاً فالسامري هو من صنع لهم العجل أما هارون فنهاهم ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه.

النوع الثاني من التحريف: كتمان الحق

لا شك أن الله حق، ولا يقول إلا حقاً، والتوراة التي أنزلت على موسى كلها حق؛ لأنها كلام الله تعالى؛ ولكن بني إسرائيل كانوا يكتُمون الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم، فالآيات التي يرون فيها منفعة لهم عاجلة أو تكون في جانب حجتهم يقرونها، وأما الآيات التي يرون أن فيها دليلاً عليهم فيكتمونها، ولهذا سجّل الله عليهم هذا الكتم في كتابه فقال سبحانه: ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتُبٍ لِّمَن تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ﴾ (آل عمران: ٧١).

ومن أعظم ما كتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه في كتبهم من صفات محمد صلى الله عليه وآله واختيار الله له رسولاً إلى الناس أجمعين وقد كانوا يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم إذا سُئلوا عن ذلك كتموا^(٢).

(١) انظر: الفصل، لابن حزم (٢٥٦/١).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٦٧/١، ١٦٢، ٣١٥).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦)، ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنعام: ٢٠).

وقد بين ﷺ صفاته ﷺ الكاملة في التوراة والإنجيل فقال ﷺ: ﴿رَأَيْتُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَسَاءَةٍ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف: ١٥٦-١٥٧) ومع هذه الأوصاف العظيمة التي كانوا يعرفونها مكتوبة عندهم أنكروا نبوته ﷺ وكنتموا ما علموه.

النوع الثالث: إخفاء الحق

وقد كان أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشيء الكثير، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ أَلَكْتَبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ أَلَكْتَبِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥١﴾﴾ (المائدة: ١٥١) ومن الأحكام التي أخفاها اليهود حكم رجم الزاني والمحصن، فقد جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟» قالوا: نحممهما ونضربهما. فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً. فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم، فانتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدارسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: «ما هذه؟» فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما... الحديث»^(١).

ولهذا قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا

(١) البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ (٨/٢٤٤).

أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ (المائدة: ٤١-٤٣). وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُيقًا مِّنْهُمْ وَمُتَعَرِّضُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران: ٢٣).

فأنكر سبحانه على أهل الكتاب المتمسكين فيما يزعمون بكتابتهم التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم^(١).

النوع الرابع: لئى اللسان

من أنواع تحريف اليهود للتوراة: لئى اللسان، فهم يلوون ألسنتهم ويعطفونها بالتحريف، ليُلِيسُوا على السامع اللفظ المنزل بغيره، ويفتلون ألسنتهم حين يقرؤون كلام الله تعالى لإمالته عما أنزله الله عليهم إلى اللفظ الذي يريدونه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَقْلُمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (آل عمران: ٧٨).

ومن التحريف بلئى اللسان ما كان يفعله اليهود مع رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿وَأَسْمَعُ عَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ (النساء: ٤٦) ويقصدون معنى اسمع لا سمعت، أي: يدعون على النبي ﷺ وقد كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ راعنا، من المراعاة والمعنى: فأزغ سمعك لكل منا، فلما سمع اليهود هذه اللفظة اغتتموا الفرصة في التحريف؛ لأن معناها عندهم السب والطعن بمعنى يا أحمق^(٢) ولكن الله ﷻ كشف سترهم فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ عَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيُدْأَلِ أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ (النساء: ٤٦).

ونهى الله المؤمنين عن صفات اليهود فقال: ﴿بِقَائِمِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَثِيرِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ (البقرة: ١٠٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٥٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (١/١٠٢، ٤٣٨).

النوع الخامس: تحريف الكلام عن موضعه

أثبت الله ﷻ على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف فقال ﷻ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦) ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَبْتَغِيهِمْ لَمَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣).

وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَوْ يَأْتُونَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ كَلِمَةٍ مِّن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة: ٤١) وهذا النوع من التحريف له أربع صور كالتالي:

- ١ - تحريف التبديل: وهو وضع كلمة مكان كلمة، أو جملة مكان جملة.
- ٢ - تحريف بالزيادة: ويكون بزيادة كلمة أو جملة.
- ٣ - تحريف بالنقص: وهو إسقاط كلمة أو جملة من الكلام المنزل على موسى ﷺ.

٤ - تحريف المعنى: تبقى الكلمة أو الجملة كما هي ولكنهم يجعلونها محتملة لمعنيين، ثم يختارون المعنى الذي يتفق مع أهوائهم وأغراضهم^(١). وهذه الصورة لها أمثلة كثيرة من التوراة لا يتسع المقام لذكرها^(٢).

ومن رحمة الله تعالى وكرمه أنه عندما ذكر ما فعلوه من العظائم دعاهم إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧﴾﴾ (التوبة: ٤٧) فلو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه ورسله لكفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة^(٣).

قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ الْغَيْرِ ﴿١٥﴾﴾
 ﴿لَوْ أَنَّهُمْ آفَمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن قَوْعِهِ وَفِي تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ

(١) التوراة دراسة وتحليل للدكتور محمد شلبي شتروي (٨٣).

(٢) انظر: إغاثة اللفهان (٢/٣٤٢ - ٣٤٤).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣١٩).

أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَمْلُكُونَ ﴿١١٠﴾ (المائدة: ٦٥ - ٦٦).

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوَّأَتِ أُمَّةٌ أَلْحَدَ الْكُتُبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

المبحث الثاني تحريف النصارى للإنجيل

وأما النصارى فقد حرفوا الإنجيل وبذلك ابتعدوا عن الصراط المستقيم وإليك ما يثبت التحريف في الأناجيل:

أولاً: النتيجة التي لا مفر من التسليم بها أن الأناجيل القانونية الموجودة الآن ما هي إلا كتب مؤلفة، وهي تبعاً لذلك معرضة للخطأ والصواب، ولا يمكن الادعاء ولو لحظة أنها كتبت بإلهام؛ فلقد كتبها أناس مجهولون، في أماكن غير معلومة، وفي تواريخ غير مؤكدة، والشيء المؤكد أن هذه الأناجيل مختلفة غير متأكفة، بل إنها متناقضة مع نفسها ومع حقائق العالم الخارجي، لأنها فشلت في تنبؤات كثيرة، كالقول بنهاية العالم، وهذا القول قد يضايق النصراني العادي بل قد يصدمه؛ ولكن بالنسبة للعالم النصراني فقد أصبح ذلك عنده حقيقة مسلم بها^(١) لما أجراه من أبحاث، ولما علم من واقع الإنجيل.

ثانياً: الشواهد على التحريف من الأناجيل

أ - جاء في إنجيل مرقس: أن المسيح قال لتلاميذه: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدان، وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بالسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرءون)^(٢).

ففي هذا النص حجة على النصارى من وجهين:

- (١) انظر: المناظرة بين الإسلام والنصرانية (٣٥ - ٥٠).
(٢) انظر: الفصل لابن حزم، (١٣٩/٢) وعزاه المحقق إلى إنجيل مرقس، والإصحاح (١٥/١٦) - (١٨).

الوجه الأول: قولهم عن عيسى أنه أمرهم أن يمشروا بالإنجيل فدل ذلك على أن إنجيلاً أتاهم به وليس هو عندهم الآن، وإنما عندهم أربعة أناجيل متغايرة، وليس منها إنجيل ألف إلا بعد رفع عيسى ﷺ بأعوام كثيرة، فصح أن ذلك الإنجيل الذي أخبر المسيح أنه أتاهم به وأمرهم بالتبشير به ذهب عنهم؛ لأنهم لا يعرفون له أصلاً، وهذا ما لا يمكن سواه.

الوجه الثاني: قولهم إنه وعد كل من آمن بدعوة التلاميذ أنهم يتكلمون بلغات لا يعرفونها، وينفون الجن عن المجانين، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون ويحملون الحيات، وإن شربوا شربة قتالة لا تضرهم، وهذا وعد ظاهر الكذب؛ فإن ما من النصرى أحد يتكلم بلغة لم يتعلمها، ولا منهم أحد ينفي جنياً، ولا من يحمل حية فلا تضره، ولا من يضع يده على مريض فيشفى، ولا منهم أحد يسقى السم فلا يضره، وهم معترفون بأن يوحنا - صاحب الإنجيل - قتل بالسم وحاشا لله أن يأتي نبي بمواعيد كاذبة، وهذا دليل على تحريف النصرى وتناقضهم وتكذيبهم أنفسهم^(١).

ب - ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى أن عيسى ﷺ دعا على شجرة تين خضراء فبيست التينة في الحال، فتعجب التلاميذ من ذلك، فقال لهم عيسى: (الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولا تشكو أمر التينة فقط، بل إن قلت أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون)^(٢).

وهذا فيه حجة على النصرى، وذلك أن الأمر لا يخلو من أن يكون النصرى مؤمناً بالمسيح ﷺ، أو غير مؤمنين، فإن كانوا مؤمنين، فقد كذبوا المسيح فيما نسبوه إليه في هذه المقالة - وحشا له من الكذب - فليس منهم أحد قدر على أن يأمر حبة من خردل بالانتقال فتنقل، فكيف على قلع جبل وإلقائه في البحر، وإن كانوا غير مؤمنين به فهم بإقرارهم هذا كفر، ولا يجوز أن يصدق كافر^(٣).

وبهذا يتبين أن الأناجيل وقع فيها تحريف عظيم ولا يعتمد عليها، ولا مخرج من هذا التيه إلا بالدخول في الإسلام، وقد ذكر الله ﷻ في كتابه ما اقترفه النصرى وما أدخلوه على حقيقة النبوة من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم، وقول بعضهم

(١) انظر: الفصل لابن حزم (١٣٩/٢).

(٢) انظر: الفصل لابن حزم (١٣٩/٢).

(٣) المرجع السابق (٩٨/٢).

بالتثليث، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ (المائدة: ٧٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلَدُّوهُ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (المائدة: ٧٣) فجاء القرآن الكريم، وبين هذا التحريف، وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَثَارَ أُولِيَاءَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (المائدة: ٧٥) والحق الذي لا يماري فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبه إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم، ومن وسطية القرآن في ركن الكتب السماوية بيانه ما وقع فيها من الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم وأعطانا القول الفصل في هذا المجال ولم يترك ما يفيدنا وينفعنا فيما يتعلق بهذا الشأن وغيره.

فبين ﷺ أن التوراة أصلها من عند الله وحدث فيها التحريف بسبب أحبارهم ورهبانهم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِييُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوْا وَلَا تَسْتَرُوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المائدة: ٤٤).

وبين ﷺ أن الإنجيل أصله من عند الله إلا أن علماءهم حرفوه قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مَقْتًا فَسَوَّاهُمْ حَقًّا وَمَا دَكَّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ (المائدة: ١٤-١٥) يَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (المائدة: ١٤-١٥).

وأخبر ﷺ أن الزبور أنزلها على داود ﷺ فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَوَعَدْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء: ٥٥) وأخبرنا سبحانه عن الصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٧٧﴾ أَلَا نَزَّرْنَا بِرُوحِنَا وَوَزَّرْنَا نُورًا ﴿٧٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٧٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٨٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٨١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

الْمُنْتَهَى ﴿١٦﴾ (النجم: ٣٦-٤٢).

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفٍ إِنْزَاهِيمٍ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ (الاعلى: ١٤-١٩).

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله، رسالة بلغة قومه، فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ٢١٣).

فمن حكمة الله أنه بين لنا ما يفيدنا في ديانا وآخرتنا فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تُسمَّ إجمالاً، ولا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.

المبحث الثالث

وسطية القرآن بين الكتب السماوية

ومن وسطية القرآن في باب الإيمان بالكتب السماوية بيانه أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم. ومن وسطية القرآن ما ميّزه الله وخصه به عن سائر الكتب المقدسة التي سبقت نزوله من الكتب المنزلة من أهمها:

أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، وجاء مؤيداً ومصداقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله، وعبادته، ووجوب طاعته، وجمع كل ما كان متفرقاً في تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وجاء مهيمناً ورقبياً عليها، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير^(١) قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قُلُوبَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا

(١) انظر: الإيمان لمحمد ياسين (١٠٠).

جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿المائدة: ٤٨﴾.

ومن وسطية القرآن أنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان. إن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ (الحجر: ٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكِذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٩٢﴾﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٩٣﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

والقرآن الكريم أنزله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة وليس خاصاً بقوم معينين، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف، وصيانته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بعكس الكتب الأخرى، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم، وهي وإن اتفقت في أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصاً بأزمنة معينة وأقوام معينين قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿المائدة: ٤٨﴾.

لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الدهور والأيام والأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن، وقد تكلّمْتُ عن أوجه الخيرية للقرآن الكريم في باب ملامح الوسطية.

وبهذا أرجو من الله العلي العظيم أن أكون قد وفقت في بيان وسطية القرآن بالسنة للكتب السماوية.